الباب الثالث

دروس في الرذائل

الدرس الأول

التقليد المذموم

التقليد: لغةً: وضع الشيء في العنق محيطًا به كالقلادة[١].

اصطلاحًا: اتباع من ليس قوله حجة[٢].

وفي اصطلاح الأصوليين: هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله[٣].

ولقد حدثت ظاهرة التقليد في أوائل القر الرابع الهجري بعد انقراض خير القرون، قال الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «إن التقليد لم يحدث إلاَّ بعد انقراض خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٤].

وما من شك لدى كل عاقل وصاحب بصيرة في أن التقليد مذموم عقلاً محرم شرعًا، إلا في حالات سيأتي ذكرها.

قال أبو الحسن المأربي ـ حفظه الله ـ: ولا يجوز التقليد إلا لعامي مع إلزامه بالبحث عن أوثق العلماء وأورعهم أو مبتدأ في طلب العلم، وهذا يلحق بالعامي أو عالم لم يمكنه الوقت في البحث في المسألة، فإذا أمكنه البحث في المسألة أو

---

(١) (٢) «الأصول من علم الأصول» (ص٩٩).

(٣) «المدخل إلى إرشاد الأمة في فقه الكتاب والسنة» (ص١٦٣).

(٤) المرجع السابق، نقلاً من: «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد» (ص١٧-١٨).

شكٌّ في قول العالم، فلا يجوز له التقليد حينذاك[١]، على هذا لا يجوز التقليد لغير من ذكروا آنفًا إذا أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أمر بالإتباع ونهى عن التقليد، فقال: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٣)، ومدح الله أهل الإتباع وبشرهم بقوله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ١٧-١٨)، وذمَّ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أهل التقليد من أهل الكفر والضلال، فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (لقمان: ٢١)، بل ما أوقع المشركين في الكفر والشرك إلا التقليد الأعمى، قال الله فيهم: ﴿ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٢)، والآية التي تليها يقول الله فيها: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣)، وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (المائدة: ١٠٤).

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ عند هذه الآية: وقد صارت هذه المقالة التي قالتها الجاهلية نصب أعين المقلدة وعصاهم التي يتوكؤون عليها إن دعاهم داعي الحق وصرخ لهم صارخ الكتاب والسنة، فاحتجاجهم بمن قلدوه ممن هو مثلهم في التعبد بالشرع مع مخالفة قوله لكتاب الله أو لسنة رسول ﷺ هو كقول هؤلاء وليس الفرق إلا في محرد العبارة اللفظية لا في المعنى الذي عليه تدور الإفادة والإستفادة، اللهم غفراً[٢].

وقال صاحب زبدة التفسير عند قول الله: ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٥٣): وهكذا يجيب من ينتسب إلى العلم من أهل هذه الملة الإسلامية إذا

---

(١) من شريط: «مهلاً يا دعاة التقليد»، الشريط الثالث، الوجه الأول.

(٢) «فتح القدير» (٢/ ٩٤).

أنكر عليه العالم بالكتاب والسنة بعض العمل المخالف لهما قالوا: هذه قد قال به إمامنا ويرفضون الأخذ بالدليل الواضح لمجرد التقليد[١]. اهـ.

أي إخواني دعاة الدين والملة، اعلموا أن التقليد جهل باتفاق العلماء ومن ثماره إهمال النص الشرعي، وتعطيل للعقل البشري، فالمقلد لا ينظر إلى المسائل المختلفة إلا بمنظار مقلده فيدور في مُلكه قبولاً وردًا، فلا يقبل قول غيره ولا يسمع بعد قوله قولاً من غير حجة ولا برهان فالحق ما قاله شيخه ولو دلَّ عليه الدليل وهكذا يصبح فكر الإنسان أسيرًا لا حراك له، وليس له القدرة على التأمل أو التفكر أو النظر، وإن وجد فيه بقية من فكر، فإنه يسخره لتحليل أقوال مقلده ودراستها، فما كاد ينطلق منها إلا لكي يرجع إليها فمنها المبدأ وإليها المنتهى، فكيف إذًا لا يكون التقليد في هذا المساق حرامًا؟!، كيف لا يكون التقليد إهمالاً للنص الشرعي؟!، كيف لا يكون التقليد إبطالاً لمنفعة العقل الذي خلقه الله للتأمل والتفكر؟!.

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه، وفي التقليد ابطال منفعة العقل، لأنه إنما خلق للتأمل والتدبر وقبيح بمن أعطى شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة[٢].

ولله در القائل حين قال:

إنا نرى التقليد داءً قاتلاً ... حجب العقول عن الطريق الأرشدِ
جعل الطريق على المقلد حالكًا ... فترى المقلد حائرًا لا يهتدي
فلذا بدأنا في اجتثاث جذوره ... من كل قلب خائف متردد

---

(١) «زبدة التفسير» (ص٣٢٦).

(٢) «المدخل إلى إرشاد الأمة في فقه الكتاب والسنة» (ص١٦٦).

ولسوف ندمل داءه وجراحه ... بمراهم الوحي الشريف المرشد
هدد تمونا بالمذاهب بعدما ... وضح الدليل فبئس من متهدد
وبعثتمونا في القبائح كلها ... وعرفتمونا بالقناع الأسود

أخي ـ يا رعاك الله ـ اعلم أن الدعوة إلى التقليد معناها: إهمال لنصوص وتقديس الأشخاص، معناها: تعطيل للعقول والأفكار، معناها: تدمير للدعوة السلفية، معناها: الرجوع بدعوتنا إلى الوراء، معناها: ادعاء العصمة لغير الرسل، وهذا خلاف ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

فالمعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن العصمة لم تتفق لأحد من البشر بعد رسول الله ﷺ وأن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وهذا اعتقاد محل اجماع بين المسلمين من أهل السنة والجماعة ولم يخالف في هذا الأصل إلا أهل الأهواء من المبتدعة، كالرافضة والإثنى عشرية والجعفرية إلا أصحاب الطرق الباطنية، كالقاديانية والإسماعيلية والنصيرية، وأمثالهم ممن ابتلى الإسلام بهم وهو منهم براء، ومعلوم أيضًا أن العلماء بشر كغيرهم يصيبون ويخطئون وهم مأجورون على كل حال، لاجتهادهم مع صدق نيتهم واستفراغ وسعهم، ولم يعرف عن أحد منهم قال للناس: قلدوني ولا تخرجوا عن مذهبي البتة وهل يقول ذلك عالم يحترم نفسه ويعرف دين الإسلام.

قال الإمام العلامة محمد العثيمين ـ رحمه الله ـ: ليس الحق لأحد أن يقول بلسان حاله أو قاله يا جماعة لا تخرجوا عن قولي، ثم يغضب إذا رأى الناس خرجوا عن قوله أقول إن كل شخص يريد من الناس أن يتبعوا قوله ويرى أن ذلك واجب، فإنه قد جعل نفسه شريكًا لرسول الله ﷺ لأنه لا أحد يجب اتباع قوله إلا الرسول ﷺ[١].

---

(١) من شريط: «من شريط مهلاً يا دعاة التقليد» مسجل بصوت الشيخ العثيمين.

والمعروف بالتتبع والاستقراء عن علماء الأمة سلفًا وخلفًا ذمهم للتقليد ونهيهم عنه، فهذا الإمام ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «**ألا لا يقلدن أحدكم في دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر**»[(١)].

وصح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «**لا تعرف الحق بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله**»[(٢)].

وقال أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: لا يحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت[(٣)]، وقال أيضًا: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»[(٤)].

وقال مالك ـ رحمه الله ـ: ليس لأحد بعد النبي ﷺ إلا ويُؤخذ من قوله ويُترك إلا النبي ﷺ[(٥)].

ـ وقال أيضًا: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي: فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه[(٦)].

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله، فقولوا بسنة رسول الله ودعوا ما قلت[(٧)].

---

(١) «منهج أهل السنة والجماعة» (ص٢١).

(٢) المرجع السابق (ص٢٢).

(٣) المرجع السابق، «الجماعات الإسلامية» (ص٢٣٥).

(٤) «صفة صلاة النبي ﷺ» (ص٢٤)، «رفع الملام» الهامش (ص٨)، «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص٦٥).

(٥) «صفة صلاة النبي ﷺ» (ص٤٩).

(٦) المرجع السابق (ص٢٨-٢٩)، «الجماعات الإسلامية» (ص٢٣٥)، «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» (ص٨).

(٧) المراجع السابقة.

ـ وقال أيضًا: إذا رأيتموني أقول قولاً وقد صحَّ عن النبي ﷺ خلافه فاعلموا أنَّ عقلي قد ذهب[١].

وقال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: من قلة علم الرجل أن يقلد في دينه[٢].

ـ وقال أيضًا: لا تقلد في دينك الرجال، فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا[٣].

ـ وقال: لا تقلدوني ولا تقلد مالكًا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا[٤].

وقال الطحاوي ـ رحمه الله ـ: لا يقلد إلا جاهل أو غبي[٥].

وقال السيوطي ـ رحمه الله ـ: المقلد لا يسمى عالمًا[٦].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ولا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم، وأن المقلد لا يطلق عليه اسم عالم[٧].

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: إن التقليد جهل وليس بعلم[٨].

وقال الشيخ مقبل الوادعي ـ رحمه الله ـ: لا يقلد إلاَّ ساقط[٩].

ـ وكان يقول أيضًا: من قلد ندم[١٠]

هكذا كان موقف أعلام الهدى ومصابيح الدجى من التقليد العقيم.

---

(١) «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» (ص٩).

(٢) (٣) «منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم» (ص٢٢).

(٤) «صفة صلاة النبي» (ص٣٤)، «الجماعات الإسلامية» (ص٣٥).

(٥)،(٦) «الجماعات الإسلامية» (ص٢٣٤).

(٧) المرجع السابق «من أعلام الموقعين» (٢/ ٥١).

(٨) المرجع السابق «من إرشاد الفحول» (ص٢٣٦).

(٩)،(١٠) من شريط: «مهلاً يا دعاة التقليد»، الشريط الأول، الوجه الأول.

وقول أعلام الهدى لا يُعمل ... بقولنا بدون نص يُقبل
فيه دليل الأخذ بالحديث ... وذاك في القديم والحديث
قال أبو حنيفة الإمام ... لا ينبغي لمن له إسلام
أخذاً بأقوالي حتى تعرض ... على الكتاب والحديث المرتضى
ومالك إمام دار الهجرة ... قال وقد أشار نحو الحجرة
كل كلام منه ذو قبول ... ومنه مردود سوى الرسول
والشافعي قال إن رأيتم ... قولي مخالفاً لما رويتم
من الحديث فاضربوا الجدارا ... بقولي المخالف الأخبارا
وأحمد قال لهم لا تكبتوا ... ما قلته بل أصل ذلك فاطلبوا
فاسمع مقالات الهداة الأربعة ... واعمل بها فإن فيها منفعة
لقمعها لكل ذي تعصب ... والمنصفون يكتفون بالنبي[1]

وبعد هذا الطواف السريع في عالم المثل والقيم ـ أعني سلفنا الصالح رحمهم الله ـ الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أحب أن أسلط الضوء على واقعنا المرير وما آل إليه بعض الدعاة والجماعات من تقليد أعمى لأكابرهم ناسيين أو متناسين أن الحق أكبر منهم، فنأسف حين نرى كثيراً من الرجال والشباب المنتسبين لبعض الجماعات والأحزاب الإسلامية قد أسروا عقولهم وأفكارهم ،فلا تجدهم إلاَّ مقلدون لأكابرهم سواء بحق أو بباطل حتى وصل الحال بعضهم أنهم يناطحون من أجل فكرة أو خطة خطها قائدهم أو رائدهم بدون تروٍّ أو بحث عن دليل، فاكتفوا بأن يكون قائدهم ورائدهم هو الدليل وهو البينات والزبر.

---

(١) من شريط: «مهلاً يا دعاة التقليد»، نقلاً من غوث المكدود، لأبي إسحاق الحويني، الجزء الأول.

لسان حال أحدهم:

إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حذام

فهؤلاء المقلدة قد يقعون في وحل الضلال والخطأ وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا حتى استقام ببعضهم قول القائل:

وما أنا إلاَّ من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

ولا شك أن التقليد العقيم صنمية جديدة وقداسة حديثة في واقع كثير من أبناء المسلمين المنتسبون للجماعات الإسلامية في زمننا هذا، فإلى الله المشتكى.

فاحذر أخي الغالي داء التقليد الدوي وغالبًا ما ينطوي داء التقليد على أصحاب العواطف الخارجة عن حدود الشرع، فإن العاطفة إن لم تتقيد بالضوابط الشرعية صارت عاصفة، ولقد قيل قديمًا: حبك للشيء يعمي ويصم.

فحذار أخي أن تتقمص شخصية غيرك وتنسى نفسك، فأنت أولى بأن تكون لك شخصية مستقلة، لا أقول شاذة بل مستقلة تبحث عن الحق وتجد في طلبه وتعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال، واعلم أن الشعور بالضعف قتل للنفس(٢).

فكأني بأخي الحبيب بعد هذا المشوار السريع مع داء التقليد قد عزم أو صمم ألاَّ يقبل رأيًا ولا قولاً لأحد غير المعصوم ﷺ إلاَّ على قاعدة: من أين لك هذا؟(٢).

فستذكر ما أقول لك وأفوض أمري إلى الله.

---

(١) من شريط: «الرجل الألف» إبراهيم الدويش.

(٢) «الجماعات الإسلامية» (ص٧).

obeikandl.com

الدرس الثاني

الغلو والإجحاف في حق العلماء

الغلو: هو التجاوز للحدود بالإفراط والتفريط[١].

وقيل الغلو: هو تجاوز الحد، يُقال: غلاً غلوًا إذا تجاوز في القدر[٢].

فيكون الغلو في العلماء: هو مجاوزة الحد في قدرهم الذي يستحقونه.

والإجحاف على النقيض من ذلك أي تنقص العلماء وهضمهم حقهم والوقوع فيهم بالسلب والثلب.

ومما لاشك فيه أن طرفي قصد الأمور ذميم، كما قال القائل:

ولا تغل في شيءٍ من الأمر واقتصد ... كلا طرفيْ قصد الأمور ذميم

فالغلو مذموم حتى في العبادات، وكذلك في إنزال الأحكام التشريعية وغير ذلك، والإنصاف سجية حميدة قلَّ أن ترى متخلقًا بها، ومن الإنصاف الواجب المفروض إنصاف العلماء؛ وذلك لأن الغلو فيهم مسلك خطير سلكه أهل الكتاب مع أحبارهم ورهبانهم فعبدوهم من دون الله.

قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في شأنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١).

فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية فقلت له: إنا لسنا نعبدهم قال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**»، فقلتُ: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**»[٣].

---

(١) «زبدة التفسير» (ص١٠٥)، عند تفسيرة سورة النساء: ١٧١.

(٢) «التوحيد» للشيخ الفوزان، (ص٨٠).

(٣) رواه أحمد والترمذي، وحسنه.

ولقد وصل بهم الغلو في العبد الصالح عزير، فقالوا: أنه ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)، وكذلك سلك النصارى مع نبي الله عيسى عليه السلام، فقالت جماعة منهم عنه أن ثالث ثلاثة، قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣)، وقالت جماعة أخرى أنه ابن الله، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)، وقالت جماعة أخرى: أن الله هو المسيح ابن مريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ١٧)، وسلك هذا المسلك الخطير الرافضة مع آل البيت، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١]، وسلك هذا المسلك (الغلو) أيضًا بعض متعصبة المذاهب وإليك صورًا من ذلك.

قال أحد متعصبة الشافعية:

ومن شعب الإيمان حب ابن شافع ... وفرض أكيد حبه لا تطوع

أنا شافعي إن حييت وإن أمت ... فوصيتي للناس أن يتشفعوا[٢]

فجاء من بعده متعصب حنبلي، فقال:

أنا حنبليٌ أن حييت وإن أمت ... فوصيتي للناس أن يتحنبلوا[٣]

قلت:

ومن شعب الإيمان حب رسولنا ... وفرض أكيد حبه لا تطوع

أنا أحمديٌ إن حييت وإن أمت ... فوصيتي للناس أن يتأحمدوا[٤]

قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: ما يتقيد بمذهب إلاَّ من هو قاصر في التمكن من العلم كأثر علماء زماننا أو من هو متعصب. قلت: هذا قول الذهبي في عصره فكيف به في عصرنا؟!

---

(١) راجع كتاب «حقيقة الإثنى عشرية»، يغنيك في هذا الباب.

(٢) (٣) من شريط: «مهلاً يا دعاة التقليد».

(٤) أعني بأحمد: (محمد رسول الله ﷺ).

وهذا المسلك حاصل عند بعض الدعاة والجماعات والأحزاب الإسلامية وغير الإسلامية في زماننا هذا، فأقول إن الغلو عاقبته ومآله الخسران فقد يصير الغالي مشركًا، وقد يصير مبتدعًا، بل إن الغالي قد يصير مقلدًا معطلاً لعقله وسمعه وبصره، وقد ينحرف من حيث لا يشعر والسبب الغلو ومما لا شك فيه أن: الشيء إن زاد عن حده، انقلب إلى ضده، والغلو في العاطفة تنقلب عاصفة، ولا أنسى أن أضع بين يديْ القارئ الكريم أن الناس وموقفهم من العلماء بين طرفين ووسط[١]:

١ ـ طرف يهدر مكانة العلماء ،ويستخف بأقدارهم وفي هؤلاء شبه بالخوارج.

٢ ـ طرف يجعل للعلماء قداسة بحيث لا يُسألون عما يفعلون، وفي هؤلاء شبه من بني إسرائيل، وشبه من الرافضة.

٣ ـ وهدى الله أهل الحق للموقف الوسط فحفظوا لأهل العلم أقدارهم وعرفوا أنهم أدلاء على حكم الله وليس لهم قداسة في ذواتهم، وأنهم غير معصومين عن الخطأ وأن طاعتهم، إنما تجب باعتبار أنهم طريق لطاعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ورسوله ﷺ.

وها هو القرآن الكريم والسنة النبوية فيهما من النصوص التي تحذر من الغلو وتنبئ بخطرعاقبته من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ (النساء: ١٧١)، وقال ﷺ: «**إياكم والغلو فإنما أهلك من قبلكم الغلو**»[٢]، وقال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله**»[٣].

---

(١) «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص٦٤) مختصرًا.

(٢) أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وابن ماجه.

(٣) أخرجه البخاري من حديث عمر رضي الله عنه.

وقال ﷺ : «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا، والحديث عند مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال ﷺ : «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»[١]، وقال أيضًا: «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومه وإن قل»[٢].

أخي - يارعاك الله - اعلم أن: مسألة الغلو خطيرة جدًا وما وجدت في قوم إلاَّ أهلكتهم[٣]، فالتعصب للشيوخ سبب من أسباب فرقة المسلمين إذ لو ساغ لكل طائفة أو أهل بلد ذلك التعصب لتفرق المسلمون في دينهم شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون[٤].

والحب الذي يقع من بعض أهل الخير لبعض الشيوخ وأهل العلم قد يصل إلى درجة الغلو وذلك عندما يغلو الإنسان في الحب، ويتجاوز في المدح حتى يثني على شيخه بما ليس فيه وتعود مساوئه عنده محاسن ولا يتقبل فيه قدحًا بحال، ولو كان ذلك الحب خاليًا من الهوى لم تقع فيه تلك الظواهر ولم يكن الحب للشخص غالبًا على حب المنهج ومسالك الهوى في هذا دقيقة، والمعصوم من عصمه الله[٥].

ولما كان الغلو معقد ولاء وبراء عند بعض المغالين في أشياخهم حذر سلف الأمة من ذلك فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: وليس لأحد أن ينصب للعامة شخصًا يدعوا إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ ،

---

(١) رواه البخاري وأحمد وأبو داود والترمذي.

(٢)رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

(٣) «التوحيد أولاً» (ص٦٢).

(٤) «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص٧٧).

(٥) المرجع السابق (ص٧٨).

ولا ينصب لهم كلامًا يوالي ويعادي غيركلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة بل هذا من فعل أهل البدع[١] اهـ.

ويقول أيضًا: من نصب شخصًا كائنًا من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو من ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ (الأنعام:١٥٩)[٢].

ويقول الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور:٦٣)، أتدري ما الفتنة؟، الفتنة: الشرك. اهـ[٣].

وحذر ابن عباس رضي الله عنه من عاقبة هذا الأمر، فقال: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ،أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر[٤].

فلذا ينبغي علينا نحوا علمائنا أن نعطيهم حقهم من الاحترام والتبجيل وأن نوقرهم التوفير الشرعي فلا نغالي فيهم ونعتقد فيهم العصمة ولا ننتقصهم حقهم، بل إن الذين نعتقده في علمائنا أنهم يحسنون ويسيئون ويصيبون ويخطئون فهم غير معصومين فنأخذ من كلامهم ما وافق الحق ونرد من كلامهم مالم يوافق الحق، فالحق يؤخذ من كل أحد والباطل يرد على كل أحد وهذا هو طريق الوسطاء والاعتدال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه فيعظم الحق ويرحم الخلق،

---

(١) «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص٧٨)، نقلا من «الفتاوى» (٢/ ١٦٤).

(٢) المرجع السابق، نقلاً من «الفتاوى» (٢٠/ ٨-٩).

(٣) «التوحيد أولاً» (ص٦٢).

(٤) «فتح المجيد» (ص٣٩٣-٣٩٥).

ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات فيُحمد ويُذم، ويُثاب ويُعاقب، ويُحب من وجه، ويُبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم[١].

ومما ينبغي أن يُعلم أن التنقص من العلماء والوقوع فيهم مسلك خطير ينبغي أن يُحذر، لأن العلماء بشر يجوز في حقهم الخطأ بالجملة لكنه يُرد، لأن حق الشريعة آكد من حق العلماء.

العالمُ إذا أخطأ نُخطأه ولكن لا نوثمه، ولا نهدر حسناته ولا نسبُّه، ولا نتطاول عليه؛ فإنَّ موقف أهل السنة من أهل العلم إذا أخطأوا أنهم لا ينزلونهم من مكانتهم ولا يسكتون على الخطأ ولا يرضون بالخطأ[٢].

ومن حق العالم أن يُنصح إذا زَلَّ أو أخطأ، فقد قال ﷺ: «الدين النصيحة»، قالها ثلاثًا، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٣]، [٤].

فالوقيعة في العلماء آفة عظيمة، وخصلة ذميمة، من تخلَّقَ بها بُلِيَ بقسوة القلب وحرمان بركة العلم، إن كان من أهله أو من طلبته وعاد ذمه وتنقصه عليه وبالاً وشرًا[٥].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر:٤٣)، والواقع في أعراض العلماء يُعدُّ مشاق لله ورسوله في رفعهما ومدحهما للعلم وأهله، بل إنه سقيم

---

(١) «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص١٤٣)، نقلاً من «منهاج السنة» (٤/٥٤٣-٥٤٤).

(٢) من شريط: «مهلاً يا عداة التقليد»، الشريط الأول بتصرف.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

(٤) «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص١٤٤).

(٥) «شباب الصحوة» (ص٥٠).

الإيمان مريض القلب محارب للسنة والقرآن مبغوض إلى الرحمن، لأنه من عداة أوليائه، فكيف يكون محبوبًا؟!.

جاء في الحديث القدسي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري أن النبي ﷺ قال: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب».

ولقد كان السلف ـ رحمهم الله ـ يذبون عن أعراض العلماء، فهذا الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يقول: إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام، فإنه كان شديدًا على المبتدعة[١].

وقال الإمام ابن المبارك ـ رحمه الله ـ حق على العاقل أن لا يستخف بثلاثة العلماء، والسلاطين، والإخوان، فإنه من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالسلطان ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مرؤته[٢].

وقال ابن عساكر ـ رحمه الله ـ: لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منقضيهم معلومة، ومن وقع فيهم بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب[٣].

أخي ـ بارك الله فيك ـ احذر الوقيعة في الأعراض، فإنها بضاعة الجبناء وكف اللسان عن المسلمين سمت العلماء، وليس الورع مقصورًا في الملبس ولمأكل والمشرب بل أشد فيه ورع اللسان الذي تقع منه السقطات، والزلات في أعراض الأحياء والأموات، وقد تجد ذلك ممن يشار إليه بالدين والعبادة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، لا يبالي ما يقول[٤].

---

(١) «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص١٠٣) نقلاً من: «سير أعلام النبيلاء» (٧/ ٤٥٠).
(٢) المرجع السابق (ص١٠٤)، نقلا من «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٥١).
(٣) «ففروا إلى الله» (ص٣٤٦).
(٤) «شباب الصحوة» (ص٥٠-٥١)، نقلاً من «الداء والدواء» لابن القيم، و«منهاج أهل السنة» (ص١٠).

وقال العلامة ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: وليَعلم الذي ابتُلي بهذه البلوى أنه إذا جرح العالم فسيكون سببًا في رد ما يقوله هذا العالم من الحق، وليعلم أن الذي يجرح العالم لا يجرحه شخصيًا بل هو تجريح لإرث محمد ﷺ، فإن العلماء ورثة الأنبياء، فإذا جرح العلماء وقدح فيهم لم يثق الناس بالعلم الذي عندهم وهو موروث عن رسول الله ﷺ حينئذٍ لا يثقون بشيء من الشريعة الإسلامية التي يأتي بها هذا العالم الذي جرح[(١)].

نعم إن الوقيعة في العلماء تنقص للدين وإهمال لشرع وضياع للحق، ولا ينبغي لعاقل أن يجعل من زلات العلماء وأخطائهم سُلَّمًا للوقوع فيهم، فإنه لو كان كذلك ما سلم أحد على وجه الأرض كائنًا من كان.

قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ في ترجمة محمد بن نصير المروزي: ولو كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له، قمنا عليه، وبدّعناه وهجرناه ،لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما والله هو هادي الخلق إلى الحق وهوأرحم الراحمين فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة[(٢)].

وقال سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ: ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلاَّ وفيه عيب، ولكن من كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله، كما أن من غلب عليه نقصانه ذهب فضله[(٣)].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فلو كان كل من أخطأ وغلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها[(٤)].

---

(١) المرجع السابق (ص٥٢-٥٣)، نقلاً من «الصحوة الإسلامية» مع ضوابط وتوجيهات.

(٢) «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص١٣٣)، نقلاً من «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٤٠).

(٣) «المرجع السابق» (ص١٣٢)، نقلاً من «جامع ابن عبد البر» (٢/ ٤٨).

(٤) المرجع السابق (ص١٣٣)، نقلاً من «إعلام الموقعين».

وقال أيضًا: ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعًا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل هو مأجور لاجتهاده فلا يجوز أن يُتبع فيها ولا يجوز أن تُهدر مكانته وإمامته في قلوب المسلمين[١].

وإذا الحبيب أتي بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً ... فأفعاله اللاتي سررن ألوفا

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين العبد وسيئاته، فإيهما غلب كان التأثير له[٢].

ولست أعني بهذا القول بقاعدة الموازنات على إطلاقها بل إن هذا الكلام في الموازنة بين الحسنات والسيئات، إنما هو في الحكم على الشخص، وأما إذا ذكر خطأ من أخطاء العالم فلا يلزم الذاكر له ذكر الحسنات والسيئات.

وعليه فإذا بينت خطأ إمام فقلت: أخطأ في الأمر الفلاني كفاك ذلك.

وإذا مدحت عالم بِدْعَة بالجودة في علوم البلاغة مثلاً كفاك ذلك، هذا إذا أُمنت الفتنة على السامع، أما إذا ظن أن السامع سيفهم الكلام على غير وجهه ويظنه حكمًا مطلقًا فلابد من البيان[٣].

وبالمناسبة نُعرج على مسألة الموازنة بشيء من التفصيل المختصر إتمامًا للفائدة، يقول الشيخ أبو الحسن المآربي ـ حفظه الله ـ في أحد أشرطته السبعة (القول الأمين في صد العدوان المبين) مسألة الموازنة، الساحة الآن فيها على فريقين:

---

(١) المرجع السابق.

(٢)المرجع السابق من كلام ابن القيم في «متاح دار السعادة».

(٣) «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص١٣٨).

١ ـ من يوجب ذكر حسنات المبتدعة والعصاة إذا أردت أن تذكرهم بذم أو بدعة، فيكون بمقتضى الإنصاف والعدل والديانة ذكر حسناتهم.

٢ ـ من يرى أن ذكر الحسنات في أي حال من الأحوال هي المخالفة لمنهج السلف.

والصواب أن لا نطلق القول بذكر حسنات المبتدع ولا نطلق القول بعدم ذلك، وبقى التفصيل، والتفصيل مضيق إلاَّ ما ثبت لشاهده من الكتاب والسنة، أو من منهج السلف، لأن الأصل في المبتدع أن لا يُذكر إلاَّ بالأمر السيء.

والمروِّجة لهذه القاعدة المشؤومة أرادوا من خلالها التلميع لأصحاب البدع، وتمييع باب الجرح والتعديل الذي هو سيف مسلول على أهل البدع[١].

ومما ينبغي التنبيه له في هذا الدرس: أن كلام العلماء في بعضهم يطوى ولا يروى، لأنه من باب كلام القرآن.

قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ: كلام الأقران إذا تبرهن أنه بهوى وعصبية لا يلتفت إليه بل يُطوى ولا يروى[٢].

وقال ـ رحمه الله ـ وكلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لاسيما إذا لاح لك إنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد وما ينجو منه إلاَّ من عصمه الله، وما علمت أن عصرًا من الأعصار سلم أهله من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين ولو شيئت لسردت من ذلك كراريس[٣].

---

(١) من أشرطة: «القول الأمين» لشيخ أبي الحسن المآربي، مختصرًا وبتصرف.

(٢) «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص١٤٨).

(٣) المرجع السابق (ص١٥٠)، «منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم» (ص٤٦).

وقال أحمد ـ رحمه الله ـ: اعلموا ـ رحمكم الله تعالى ـ أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئًا من العلم وحُرِمهُ قرناؤه وأشكاله حسدوه فرموه بما ليس فيه وبئست الخصلة في أهل العلم[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «**استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض**»[٢].

وختامًا،

احذر أخا الإسلام أن تسلك مع العلماء سلوك أهل الكتاب مع أحبارهم ورهبانهم، أو سلوك النصارى مع عيسى ابن مريم عليه السلام، أو سلوك الرافضة مع آل البيت، واحذر النقيض من ذلك أيضًا، وأنزل علماء المسلمين منازلهم الشرعية، فلا إفراط ولا تفريط وخاب وخسر من لمن يلزم غرز العلماء العاملين، فيما لا يخالف الكتاب والسنة الذي دعوتهم كالغيث، حيثما وقع نفع، لاسيما الأكابر منهم.

متى يصل العطاش إلى ارتواء ... إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثني الأصاغر عن مراد ... إذا جلس الأكابر في الزوايا
وإن ترفع الوضعاء يومًا ... على الرفعاء من إحدى الزوايا
إذا استوت الأسافل والأعالي ... فقد طابت منادمة المنايا[٣]

(١) المرجع السابق (ص١١٠).
(٢) المرجع السابق» (ص١٤٧).
(٣) المرجع السابق (ص٩٥)، من شعر عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي ـ رحمه الله ـ.

openkandil.com

الدرس الثالث

أولاً ـ الكبر بطر الحق

الكبر رذيلة من الرذائل التي يجب التخلي عنها.

والتكبر: يعني به: رد الحق واحتقار الخلق وضد ذلك التواضع[١].

فالمتكبر مذموم الخُلق، لأن الكبر خلق ذميم صاحبه، معرض عن الحق، متكبر على الخلق، معتز بالإثم، فخور بنفسه، معجب برأيه، مختال في مشيه، متشدق ومتفيهق بكلامه، مبغوض عند ربه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (النحل: ٢٣)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان: ١٨).

وتوعد الله أهل الكبر بالنار، فقال: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر: ٧٢)، فكم من كلمات عجب وغرور لفظ بها صاحبها فجرته إلى النار، وبئس القرار؟، وكم من معرض عن الحق مستنكف عنه نزل به العذاب في الدنيا قبل الآخرة ليكون عبرة للمعتبرين.

فها هو القرآن الكريم يذكر أحوال أمم سابقة أعرضت عن الحق فدمر الله بنيانهم وزلزل عروشهم، قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٠)، نعم، كل هذا العذاب كان نتيجة استكبارهم عن الحق وإعراضهم عنه، بل ما أوقع إبليس في اللعنة والطرد من رحمة الله إلاَّ الكبر.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص١٣)، أصول وكليات لا يستغني عنها المفسر.

قـال ابن القيـم ـ رحمـه الله ـ: وليُـحذر كل الحذر من طـغيـان (أنا، ولي، وعندي)، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتُلي بها إبليس وفرعون وقارون: «فأنا خير منه»: لإبليس، و«لي ملك مصر»: لفرعون، و«إنما أوتيته على علم عندي»: لقارون[1].

أخي ـ يا رعـاك الله ـ، اعلم أن الإستنكاف عن الحق، والإعـراض عنه من أعظم الظلم، قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (السجدة: ٢٢)، فماذا بعد أن يعرف المرء الحق، ثم يتخلى عنه إلاَّ أن يتخلى الله عنه، وأشـد منه الذي وقف مجادلاً بالبـاطل ليدحض به الحق مع علمه بأنه على باطل.

والحق ـ بحمـد الله ـ أوضح من الشمس في رابعة النهار، وهو مـرسوم في السنة والقرآن: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ (المائدة: ١٥)، ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١٥)، والحق له أهلون الأنبياء والمرسلون والصالحون المخلصـون وبالجملة، فأهل الحق قليل؛ لأن طريقه شاق فـلا تستوحش من قـلة السالكين، ولا تغتـر بكثرة الزائغين فـمادمت على الحق، فإنه لا يزال لك من الله ظهيـر، والذي ينبغي علينا أن يكون الحق ضالتنا التي ننشدها، وبغيـتنا التي نطلبها، وغايتنا التي نرجوها؛ فـمن جدَّ وَجدَ، ومن تحرَّ الحق يعطه، ومن توقَّ الباطل يوقه، فإن قومًا تحروه قبل الإسلام وفي صولة الجاهلية فوجدوه، وَوُفِّقـوا إليه وبقوا على الحنيفة ملة إبراهيم عليه السلام، وبحث عنه سلمان الفارسي رضي الله عنه فوجده.

والتحري: **بمعنى**: بذل الجهد والوسع، ولما كان الحق عظيمًا وجب من أجله بذل الغالي والنفيس، والالتـجاء إلى الله بالتوفيق إليه والثـبات عليه؛ فكل ذلك هو عين التحري.

---

(١) «فن الحوار» (ص١٢٨)، نقلاً من «زاد المعاد في هدي خير العباد» الجزء الثاني.

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: ولقد تأملت نيل الدُّر فوجدته معاناة الشدائد[١].

أي أخي القارئ، إنه ومن المؤسف والمحزن أن وجدنا فئام من الناس نظروا إلى الحق عبر الرجال فلم يوفقوا، ولم يهتدوا إليه سبيلاً، لأن الرجال يُعرفون بالحق ، لا الحق يُعرف بالرجال، ومن تعرَّف على الحق عَرَفَ أهله.

ومن المؤسف ـ أيضًا ـ حين نرى رجالاً وشبابًا قد وقفوا في وسط الطريق يقلبون أطرافهم وأكفهم لا يدرون إلى أين يتجهون؟ فهم أتباع كل ناعق مرة هنا، وأخرى هناك، وهناك أسباب منيعة وأسياج متينة أضاعت معالم الحق على ضعفاء المسلمين منها:

١ ـ الحزبية المقيتة التي جعلت من أحدهم لا يرى الحق إلاَّ عبر مجهرها.

٢ ـ المسميات المختلفة للجماعات الإسلامية وهل التشرذم والتفرق والعيب إلاَّ في المسميات؟، فهي في بدايتها كلمة، ثم تكون بعد ذلك مذهبًا ونحلة.

٣ ـ الكبر وعدم الإذعان للحق: فالإذعان للحق هو عين التواضع سُئل الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ عن التواضع؟، فقال: التواضع أن تخضع للحق وتنقاده ولو سمعته من أجهل الناس[٢].

ومن المؤسف ـ أيضًا ـ ما نلمسه بين شباب الصحوة من منازعات وجدال عقيم لا نهاية له، وكل يحسب نفسه على الجادة:

وكل يدعى وصلاً بليلي ... وليلى لا تقر لهم بذاك

---

(١) من شريط: «الرجل الصفر» للدويش.

(٢) «أصول الدعوة» (ص٣٦٢).

حتى وصل الحال ببعضهم إلى رد الحق وهو عين الكبر، وهذا متحقق غالبًا في أوساط أصحاب الانتماءات الحزبية، فقد تجد مستشرقًا أو ملحدًا أو كافرًا أو صاحب هوى لا يقيم وزنًا، لأدلتك رغم أنها قوية واضحة، فلا يحرك ذلك لأنه قد ينكر الأدلة الواضحة كالشمس غير المنصف ومن لا يريد الحق.

قد تُنسكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم[١]

والحاصل أن رد الحق خلاف ما كان عليه سلفنا الصالح ـ رحمهم الله ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: من دعا إلى شيئين من الدين بلا أصل من كتاب الله وسنة رسوله فقد دعا إلى بدعة وضلالة، وإلاَّ في نظره مع نفسه ومناظرته لغيره إذا اعتصم بالكتاب والسنة، هذاه الله إلى الصراط المستقيم، فإن الشريعة مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق[٢].

وقال شيخ الإسلام ـ أيضًا ـ: فإن تنازع المسلمون في مسألة وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، فأي القولين دلَّ الكتاب والسنة وجب اتباعه[٣].

فمحور الكتاب الشرعي عند المسلمين في المسائل الشرعية يعتمد على النص الشرعي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ١٠)[٤].

أخي ـ يا رعاك الله ـ إذا وضح الحق وظهر الباطل ظهورًا جليًا لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات وتضمحل المجادلات[٥].

---

(١) «فن الحوار» (ص٦٨).
(٢) المرجع السابق (ص٦٥).
(٣) المرجع السابق (ص٦٤).
(٤) المرجع السابق.
(٥) «تيسير الكريم الرحمن» (ص١٢)، أصول وكليات.

قال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: اقبل الحق ممن جاء به ولو من أكفر الناس، وَرُدَّ الباطل ولو كان من أشد الناس إيمانًا.

فالله الله في معرفة الحق ولزومه والمراد بالحق ما عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه فهي جماعة المسلمين ولا تنظر لكثرة مخالفيهم، فإن الجماعة الحق ولو كنت وحدك[1]، فكثرة العدد وسعة لانتشار ليس لها وزن في الميزان الشرعي[2].

وجاء في (شرح الطحاوية) نقلاً من كتاب (الحوادث والبدع): أن أبا محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة، قال: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق هو الذي عليه الجماعة الأورلى من عهد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ولا تنظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم.

وعن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ قال: السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقلَّ الناس فيما مضى وهم أقل الناس، فيما بقي الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك فكونوا[3].

وجاء في (السراج الوهاج) في بيان المنهاج: وأرى أنه لا يستوحش من قلة السالكين ولا يُغتر بكثرة الزائغين، فإن من علامات الساعة أن يكثر الجهل، ويقل العلم[4].

فاللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

«اللهم آمين»

---

(١) قاله ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «الجماعات الإسلامية» (ص١٦٣) الحاشية.

(٣) «شرح الطحاوية» (٢٧٥-٢٧٦).

(٤) «السراج الوهاج» (ص٣٩).

ثانيًا- وغمط الناس

غمط الناس: أي: احتقارهم[١].

فاحتقار الناس نوع من التكبر ويعدُّ خلقًا ذميمًا، يدل على سقوط صاحبه، ولذلك نهى - عَزَّ وَجَلَّ - عن احتقارالناس والسخرية منهم، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ (الحجرات: ١١)، فهذه الآية فيها نهي عن احتقار الخلق والتكبر عليهم، فربما يكن المسخور منهم عند الله خيرًا من الساخرين بهم، ومثل ذلك النساء، وفيها نهي عن اللمز وهو الطعن في الشخص من خلقه.

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (الهمزة: ١)، فالويل هو الخزي والعذاب والهلكة وذلك لكل همَّاز لمَّاز، والهمزة: هو الذي يغتاب لرجل في وجهه. واللمزة الذي يغتابه من خلفه[٢]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ (القلم: ١٠-١١).

ومن الآيات الدالة على تحريم احتقار الخلق: قول الله تعالى: ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ (لقمان: ١٨)، أي: لا تعرض عن الناس تكبرًا عليهم[٣].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**المسلم أخوا المسلم لا يخذله ولا يحقره ولا يسلمه، بحسب امرئ من الشر أن يحقره أخاه، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»[٤].

---

(١) «شرح رياض الصالحين» (٤/ ١٥٧).
(٢) «زبدة التفسير» (الهمزة: ١) (ص ٦٠١).
(٣) المرجع السابق (ص٤١٢).
(٤) رواه مسلم.

انظر إلى قوله: «بحسب» حسب هنا بمعنى كافي، يعني: يكفي المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم وهذا تعظيم لاحتقار المسلم وأنه شر عظيم، لو لم يأتِ الإنسان في الشر، إلاَّ هذا لكان كافيًا[1].

* **واحتقار المسلم لأخيه المسلم له صور عديدة:**

فقد يحتقره لفقره ومسكنته، وقد يحتقره لجهله، وقد يحتقره لدمامة خِلقته وسوء منظره، وقد يحتقره لضعف في جسمه من قصر أو هزل، وقد يحتقره لنسبه وحسبه . . . إلخ.

وعلى كل فإن الاحتقار للآخرين مهما كانت صورته، فإنه لا يليق بمسلم أن يتصف به بل اللازم عليه التواضع وخفض الجناح للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٥)، وإليك أيها القارئ هذه الصورة الصادقة التي تجسد في طيها الروح العالية التي كان يتمتع بها الرسول ﷺ وما تحلى به من تواضع رفيع.

جيئ بأعرابي وهو يرتعد خوفًا من رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «هون عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة»[2].

إن هذا التواضع منقطع النظير وتصاغر لا محدود لكنه من غير مسكنة، قال ﷺ: «طوبى لمن تواضع في غير مسكنة»[3].

وإن مما ينبغي التنبيه في هذا الموضوع مشكلة الفخر في الأنساب حزبية جوفاء، وجاهلية جهلاء، نلمسها في أوساط مجتمعنا، فمجتمعنا يعج ويمج،

---

(١) «شرح رياض الصالحين» (٤/ ٤٥٨).
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.

من هذه الظاهرة، السيئة السلبية التي قد محاها ديننا الحنيف وعمل على إزالتها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، فهم على اختلاف مشاربهم وألوانهم وأشكالهم وبلدانهم وأنسابهم إخوة لا فضل بينهم ماداموا مؤمنين بالله وحده متبعين لهدى نبيه ﷺ، قال تعالي: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال ﷺ: «**كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلاَّ بالتقوى**»[١]، فهذا هو ميزان التفاضل بين العباد.

أمنا التقوى التي أرضعتنا ومن هواها ونحن نأبى الفطام

وهناك كلام قيِّم لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (مدارج السالكين)، حيث قال عند علامة أهل العبودية: العلامة الثانية[٢]، ولم ينسبوا إلى اسم؛ فإن آفة العبودية هي العبودية المقيدة، وأما العبودية المطلقة فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني اسمائها، فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم، فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزي، بل إن سُئل عن شيخه، قال: الرسول ﷺ، وعن طريقه، قال: الإتباع، وعن خرقته، قال: لباس التقوى، وعن مذهبه، قال: تحكيم السنة، وعن مقصده ومطلبه، قال: يريدون وجهه، وعن رباطه وعن خانكاه، قال: في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال، وعن نسبه، قال:

أبي الإسلام لا أبًا لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وعن مأكله ومشربه، قال: مالك ومالها معها حذاءها وسقائها ترد الماء وترعى الشجر حتى تلقى ربها.

---

(١) متفق عليه.

(٢) «حكم الانتماء» (ص١١١).

ثم قال: أولئك ذخائر الله حيث كانوا، وهؤلاء لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابهم غير مشارٍ إليهم، ولا متميزين برسم دون الناس ولا منتسبين إلى اسم طريق أو مذهب أو شيخ أو زي، كانوا بمنزلة الذخائر المخبودة، وهؤلاء أبعد الخلف عن الآفات، فإن الآفات كلها تحت الرسوم هذه هي الطرق التي قطعت أكثر الخلق عن الله وهم لا يشعرون[1].

والشاهد قوله: وعن نسبه قال: أبي الإسلام.

وأوردتُ الكلام بطولة لما فيه من النفائس والدرر التي لا غنى لطالب علم عنها بل ولا مسلمو على ذلك نقول: إن الأنساب ليس إلاَّ للتعارف، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات:١٣)، فقال: لتعارفوا، ولم يقل: لتفاضلوا.

فإلى الذين يفخرون بآبائهم وأنسابهم نقول لهم: انتهوا، ثم انتهوا خيرًا لكم أو لتكونن أهون على الله من الجعلان، قال ﷺ: «**لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الحزء بأنفه**»[2].

وليعلم كل من يفخر بنسبه أن نسبه لا يغني عنه من الله شيئًا فماذا أغنى عن أبي لهب نسبه، هل دفع عنه من عذاب الله شيئًا؟، كلا، بل مصيره النار وبئس القرار، بإخبار الملك العلام حيث قال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (المسد:١-٣).

وماذا ضرَّ سلمان نسبه جاء في الحديث: «**سلمان منا آل البيت**»، وهو ضعيف.

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب

---

(١) رواه الترمذي وأحمد وأبو داود عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٤٨٢).
(٢) «حكم الانتماء» (ص١١١).

ولقد وصل الأمر بمسألة الفخر في النسب إلى ما لا يُحمد عقباه، فإننا نسمع ونرى في كثير من المجتمعات أن القبيلة الفلانية لا يُزوَّجون من غير قبيلتهم، ولا يُتَزَوج منهم، نظرًا لأنهم من القبائل المنتقصة في المجتمع، ولو كان الشاب أو الفتاة على خير كثير أو استقامة عالية، فإن هذا الأمر لا معيار له أمام النسب في نظرهم حتى يصل الأمر أحيانًا بالفتاة الصالحة أن يُفرض عليها قبول الزواج من أي شاب تقدم لها من نفس القبيلة، ولو كان سفيهًا منحرفًا، لأنه صار معلومًا عندهم أنه لا يمكن لأحد من غير القبيلة أن يتقدم للزواج، ولو حدث أن تقدم أحد للزواج منهم ـ أعني من القبيلة المتهمة بالنقص ـ لربما جرَّ ذلك إلى مفاسد عظيمة يصل أحيانًا إلى سفك الدماء وأقلَّ ضررًا أن المتزوج يُطرد من قِبل عشيرته ويُهجر ويبقى كأن لا عشيرة له، هكذا وصل الحال بالفخر بالأنساب في مسألة الزواج أضرار وخيمة مع أن الكفاءة في النسب ليس شرطًا.

سُئل الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: هل يشترط الكفاءة في النسب في الزواج؟، فأجاب قائلاً: الوجهة الصحيحة في الكفاءة أنها الدين والخلق فمن كان ذا دين وخلق، فإنه يُزَوَّجْ سواءً كان قبيليًا أو غير قبيلي والتفريق بين القبيلي وغيره في هذا الباب هو موضع خلاف بين أهل العلم والذي يترجح عندي أن لا يُشترط لا للصحة ولا للزوم الكفاءة في النسب وأن المدار كله على الخلق والدين فمن كان ذا كفاءة فليس في الكتاب، ولا في السنة ما يمنعه[1]. ا هـ.

وعلى هذا فإن اشتراط الكفاءة في النسب يؤدي في نهاية المطاف إلى ضياع الكثير من الشباب المستقيم وأكثر منه الشابات المستقيمات، وبالتالي يفوتنا خير كثير، فالواجب على كل مسلم أن يبذل ما بوسعه لإزالة هذه الفوارق المصطنعة

---

(١) من شريط: «حقوق المرأة وواجباتها»، الشريط الثاني مختصرًا، ابن عثيمين.

والعمل على ترسيخ مبدأ الأخوة الإيمانية فيشعر الناس أنهم سواء ماداموا مؤمنين، فلا فضل بينهم ومما ينبغي التذكير به في أوساط الناس أن كل من يعمل على الطعن في الأنساب فهو يدعوا بدعوى الجاهلية التي قد وضعها النبي ﷺ تحت قدميه وذلك في حجة الوداع، قال ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية (كبرها) كلكم بنوا آدم وآدم من تراب»[1].

لئن فخرت بآباء ذوي نسب ... لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

(١) رواه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة وحسنه الألباني.

obeikandl.com